

الفصل الثالث عشر

سرية أبي عبيدة بن الجراح ﷺ إلى سيف البحر^(١) (الخطب)

رجب ٦هـ / نوفمبر (تشرين ثان) ٦٢٧م / هاتور ٣٤٤ قبطي

المبحث الأول

عرض سرية أبي عبيدة بن الجراح ﷺ

إلى سيف البحر (الخطب)

تاريخ السرية:

قال الإمام ابن القيم: وهذا السباق يدل على أن هذه الغزوة كانت قبل الهدنة وقبل عمرة الحديبية، فإنه من حين صالح أهل مكة بالحديبية لم يكن يرصد لهم عيرا، بل كان زمن أمن وهدنة إلى حين الفتح، ويعد أن تكون سرية الحبط على هذا الوجه مرتين: مرة قبل الصلح ومرة بعده، والله أعلم.

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٩٠].

وقال الإمام ابن كثير: ومقتضى أكثر هذه السياقات أن هذه السرية كانت قبل صلح الحديبية.

[البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٥٠٤].

وقال الإمام ابن حجر: إن تلقى عير قريش ما يتصور أن يكون في الوقت الذي ذكره ابن سعد في رجب سنة ثمان؛ لأنهم كانوا حينئذ في الهدنة، بل مقتضى ما في الصحيح أن تكون هذه السرية في سنة ست أو قبلها قبل هدنة الحديبية. [فتح الباري لابن حجر ٧/ ٦٧٨-٦٧٩].

ويقول د/ بريك: «ولم توضح لنا غالبية الروايات، وخاصة الصحيحة منها تاريخ محدد لهذه السرية، وقد أغرب الشامي حين ذكر أن جمهور أئمة المغازي حددوا تاريخها بربح في السنة الثامنة الهجرية [سبل الهدى للشامي ٦/ ٢٧٥]؛ حيث لم يقل بذلك غير الواقدي ومن تابعه. [ينظر: المغازي للواقدي ١/ ٦، والطبقات لابن سعد ٢/ ١٣٢، وعيون الأثر لابن سيد الناس ٢/ ٢٠٦، وإرشاد الساري للقسطلاني ٦/ ٤٢٧].

وقد رد كل من ابن القيم، وابن حجر هذا القول باعتبار تلك الفترة فترة هدنة مع قريش، فالظاهر أن ذلك وهم غير محفوظ، بل مقتضى ما في الصحيح أن تكون هذه السرية في سنة ست أو قبلها قبل الهدنة. [بتصرف واختصار من: زاد المعاد لابن القيم ٢/ ١٥٨، وفتح الباري لابن حجر ٨/ ٧٨].

وذكر ابن العراقي أن السرية كانت بعد نكث قريش للعهد، وقبل الفتح.

[ينظر: طرح الشريب في شرح التريب لأبي زرعة العراقي ٦/ ٨-٩].

وعلق الزرقاني بعد ذلك: بأنه لا يعتبر قول ابن القيم كون السرية في رجب وهم غير محفوظ.

[ينظر: شرح المواهب للزرقاني ٢/ ٢٨١].

وعلى تسليم ظاهره، يحتمل أن يكون البعث في أواخر رجب بحيث لا يصلون إلى جهينة ويلقون العير، إلا في شعبان». [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١١٦].

ويقول د/ العمري: «أوضح ابن القيم خطأ ابن سيد الناس في تاريخ السرية في رجب سنة ثمان، حيث لم يغزو ولم يبعث سرية في الشهر الحرام، ثم إن صلح الحديبية يمنع اعتراض المسلمين لقافلة قريش، فلا بد أن تكون سرية الخبط قبل الصلح، فلعلها كانت في أعقاب الخندق كما أثبتتها».

[السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٤٣٣/٢].

وأقول: إن السبب الثاني صحيح، أما السبب الأول فقد ثبت أن الرسول ﷺ أرسل سراياه في الأشهر الحرم كما سأشير في الدروس المستفادة من هذه السرية.

وعلى هذا فإني أرجح أن يكون تاريخ السرية هو رجب سنة ست.

سبب السرية:

«استثمر المسلمون ما أصاب الأحزاب من فشل، وضيقوا على قريش الخناق الاقتصادي من جديد، فأرسل النبي ﷺ أبا عبيدة ﷺ في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار لرصد قافلة لقريش قرب ساحل البحر». [السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٤٣٣/٢].

«وتعتبر سرية الخبط، استمراراً لسياسة النبي ﷺ العسكرية لإضعاف قريش، ومحاصرتها اقتصادياً على المدى الطويل، ولتعويض المهاجرين، ولو جزءاً بسيطاً مما فقدوه من أموال ومتاع استولت عليها قريش عند مغادرتهم وطنهم مكة». [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١١٦].

قال الإمام ابن حجر: وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ وَغَيْرُهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُمْ إِلَى حَيٍّ مِنْ جُهَيْنَةَ بِالْقَبِيلَةِ - بَفَتْحِ الْقَافِ وَالْمُوَحَّدَةِ - مِمَّا يَلِي سَاحِلَ الْبَحْرِ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ خَمْسُ لَيَالٍ، وَأَنَّهُمْ أَنْصَرَفُوا وَلَمْ يَلْقَوْا كَيْدًا، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانٍ، وَهَذَا لَا يُغَايِرُ ظَاهِرَهُ مَا فِي الصَّحِيحِ، لِأَنَّهُ يُمْكِنُ الْجُمُعُ بَيْنَ كَوْنِهِمْ يَتَلَقَّوْنَ عِيرًا لِقَرْيَشٍ وَيَقْصِدُونَ حَيًّا مِنْ جُهَيْنَةَ، وَيَقْوِي هَذَا الْجُمُعُ مَا عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ طَرِيقِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُقْسِمٍ عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْثًا إِلَى أَرْضِ جُهَيْنَةَ» فَذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ.

[فتح الباري لابن حجر ٦٧٨/٧].

ويقول د/ بريك: «وقد حاول بعض المتأخرين الجمع بين القولين، فذكر أنه يمكن الجمع بين كونهم يتلقون عيراً لقريش ويقصدون حياً من جهينة لمحاربتهم». [ينظر: المواهب اللدنية للسطلاني ١٤٧/١].

قلت: البعث للمقصدين لا يستقيم لأنه يصعب على دورية قوتها ثلاثمائة فرد أن تقوم بمهمة مزدوجة في آن واحد، وعلى فرض إمكانية ذلك فإنه لم يَقَعْ في شيءٍ مِنْ طَرِيقِ الْحَبَرِ أَنَّهُمْ قَاتَلُوا أَحَدًا، بَلْ فِيهِ أَنَّهُمْ قَامُوا أَنْصَفَ شَهْرٍ أَوْ أَكْثَرَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ. [فتح الباري ٦٧٩/٧].

بل إن الواقدي الذي انفرد بهذا القول ساق في روايته تعامل أحد أفراد السرية التجاري مع بعض أفراد قبيلة جهينة. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٧٥].

أما ابن حجر فذكر في صدد الجمع بين القولين أنه «يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَلَقُّيهِمْ لِلْعِيرِ لَيْسَ لِحَارَتِهِمْ بَلْ لِحَفْظِهِمْ مِنْ جُهَيْنَةَ». [الفتح لابن حجر ٧/ ٦٧٩].

وهذا الاحتمال بعيد لأن قبيلة جهينة هي من القبائل الداخلة ضمن الإيلاف الصيفي مع قريش، ولم يرد في أخبار المغازي أن رسول الله ﷺ عقد حلفاً معها ضد قريش كما فعل مع القبائل الأخرى كبني مدلج وغيرهم، فليس لجهينة مصلحة في نقض حلفها مع قريش، وعلى فرض أنهم فعلوا ذلك من أجل المسلمين، فلماذا يبعث رسول الله ﷺ سرية تحمي عير قريش منهم. والله تعالى أعلم بالصواب. [السرائر والبعث حول المدينة ومكة لبريك ١١٧].

أحداث السرية:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْثًا قَبْلَ السَّاحِلِ، فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه، وَهُمْ ثَلَاثَةٌ وَأَنَا فِيهِمْ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَنِي (انتهى ونفذ) الزَّادُ، فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادٍ (جمع الزاد وهو طعام يتخذ للسفر) ذَلِكَ الْجَيْشِ فَجُمِعَ ذَلِكَ كُلُّهُ فَكَانَ مَزُودِي (الوعاء يحمل فيه ما يترزّد به في السفر من طعام) تَمَرًا، فَكَانَ يَقُوُّنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلًا قَلِيلًا، حَتَّى فَنِي فَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلَّا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ، فَقُلْتُ: وَمَا تُغْنِي [عَنْكُمْ] تَمْرَةٌ؟ فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَنَيْتُ، قَالَ: ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى الْبَحْرِ، فَإِذَا حُوتٌ مِثْلُ الظَّرْبِ (الجلل الصغير أو الراية الصغيرة)، فَأَكَلْنَا مِنْهُ ذَلِكَ الْجَيْشُ ثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِضَلْعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ فُصِّصَا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فُرِحِلَتْ، ثُمَّ مَرَّتْ تَحْتَهُمَا فَلَمْ تُصِبْهُمَا.

[البخاري في الشريعة (٢٤٨٣)، وفي المغازي (٤٣٦٠)].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ نَحْمِلُ زَادَنَا عَلَى رِقَابِنَا، فَفَنِي زَادُنَا، حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ مِمَّا يَأْكُلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَمْرَةً، قَالَ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، وَأَيْنَ كَانَتِ التَّمْرَةُ تَقَعُ مِنَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَقْدِنَاهَا، حَتَّى أَتَيْنَا الْبَحْرَ فَإِذَا حُوتٌ قَدْ قَدَفَهُ الْبَحْرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَوْمًا مَا أَحْبَبْنَا. [البخاري في الجهاد (٢٩٨٣)].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةً رَاكِبِينَ، أَمِيرُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه، تَرَصُّدٌ عِيرَ (كل ما جلب عليه المتاع والتجارة من قوافل الإبل والبغال والحُمير) قُرَيْشٍ، فَأَقَمْنَا بِالسَّاحِلِ نَصْفَ شَهْرٍ [حَتَّى فَنِي زَادُنَا]، فَأَصَابَنَا جُوعٌ شَدِيدٌ حَتَّى أَكَلْنَا الْخَبْطَ (الورق الساقط عند خبط الشجرة بالعصا وهو من علف الدواب، أو هو ما سقط من ورق شجر العضاة بالخبط والنفض)، فَسَمِّيَ ذَلِكَ الْجَيْشُ جَيْشَ الْخَبْطِ، فَأَلْقَى لَنَا الْبَحْرُ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا الْعَنْبَرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ نِصْفَ شَهْرٍ، وَادَّهَنَّا (ادهن: تطلّى بالدهن) مِنْ وَدَكِهِ (دَسَمَ

«هُوَ رِزْقُ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعَمُونَا مِنْهُ» قَالَ: فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ [مسلم في الصيد والذباح وما يؤكل من الحيوان (١٩٣٥)، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٤٠)، ومسنّد أحمد ٢٢/٢٤٢ رقم ١٤٣٣٨].

وروى مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ رَاكِبٌ، وَأَمِيرُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ تَرَصَّدَ عِيراً لِقُرَيْشٍ، فَأَقَمْنَا بِالسَّاحِلِ نِصْفَ شَهْرٍ، فَأَصَابَنَا جُوعٌ شَدِيدٌ حَتَّى أَكَلْنَا الْخَبْطَ، فَسَمِّيَ جَيْشُ الْخَبْطِ، فَأَلْقَى لَنَا الْبَحْرُ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا: الْعَنْبَرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا نِصْفَ شَهْرٍ، وَادَّهَنَّا مِنْ وَدَكِهَا حَتَّى ثَابَتَ أَجْسَامُنَا، قَالَ: فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَتَصَبَّهُ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى أَطْوَلِ رَجُلٍ فِي الْجَيْشِ، وَأَطْوَلِ جَمَلٍ فَحَمَلَهُ عَلَيْهِ، فَمَرَّ تَحْتَهُ، قَالَ: وَجَلَسَ فِي حِجَاجِ (الحاء مكسورة ومفتوحة لغتان مشهورتان وهو بمعنى وقب عينه المذكور في الرواية السابقة، الحجاج: العظم المستدير حول العين) عَيْنِهِ نَعْرًا، قَالَ: وَأَخْرَجَنَا مِنْ وَقْبٍ عَيْنِهِ كَذَا وَكَذَا قُلَّةً وَكَذَا، قَالَ: وَكَانَ مَعَنَا جَرَابٌ مِنْ تَمْرٍ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِي كُلَّ رَجُلٍ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضَةً، ثُمَّ أَعْطَانَا ثَمْرَةً ثَمْرَةً، فَلَمَّا فِينَا وَجَدْنَا فَقْدَهُ. وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي جَيْشِ الْخَبْطِ: إِنَّ رَجُلًا نَحَرَ ثَلَاثَ جَزَائِرَ (جمع جزور وهو البعير ذكرًا كان أو أنثى)، ثُمَّ ثَلَاثًا، ثُمَّ ثَلَاثًا، ثُمَّ نَهَاهُ أَبُو عُبَيْدَةَ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا النَّبِيُّ ﷺ وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ نَحْمِلُ أَزْوَادَنَا عَلَى رِقَابِنَا. وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً ثَلَاثِيَّةً، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ﷺ، فَفَنِي زَادُهُمْ، فَجَمَعَ أَبُو عُبَيْدَةَ زَادَهُمْ فِي مَزْوِدِ (الوعاء يجعل فيه ما يترود به في السفر من طعام)، فَكَانَ يُقَوِّتُنَا حَتَّى كَانَ بِصَبِّينَا كُلِّ يَوْمٍ ثَمْرَةً.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً أَنَا فِيهِمْ إِلَى سَيْفِ (ساحل) الْبَحْرِ، وَسَاقُوا جَمِيعًا بِقِيَّةِ الْحَدِيثِ كَنَحْوِ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ وَأَبِي الزُّبَيْرِ غَيْرَ أَنَّ فِي حَدِيثِ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ: فَأَكَلَ مِنْهَا الْجَيْشُ ثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْثًا إِلَى أَرْضِ جُهَيْنَةَ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا... وَسَاقَ الْحَدِيثَ يَنْحُو حَدِيثَهُمْ. [مسلم في الصيد والذباح (١٩٣٥)].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مِائَةِ رَاكِبٍ أَمِيرُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ، تَرَصَّدَ عِيراً لِقُرَيْشٍ، فَأَقَمْنَا بِالسَّاحِلِ [نصف شهر]، فَأَصَابَنَا جُوعٌ شَدِيدٌ حَتَّى أَكَلْنَا الْخَبْطَ، [فسمي ذلك الجيش جيش الخبط]، قَالَ: فَأَلْقَى الْبَحْرُ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا: الْعَنْبَرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ نِصْفَ شَهْرٍ، وَادَّهَنَّا مِنْ وَدَكِهِ فَثَابَتَ أَجْسَامُنَا، وَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنَظَرَ إِلَى أَطْوَلِ جَمَلٍ وَأَطْوَلِ رَجُلٍ فِي الْجَيْشِ فَمَرَّ تَحْتَهُ، ثُمَّ جَاعُوا فَنَحَرَ رَجُلٌ ثَلَاثَ جَزَائِرَ، ثُمَّ جَاعُوا فَنَحَرَ رَجُلٌ ثَلَاثَ جَزَائِرَ، ثُمَّ جَاعُوا فَنَحَرَ رَجُلٌ ثَلَاثَ جَزَائِرَ، ثُمَّ نَهَاهُ أَبُو عُبَيْدَةَ.

قَالَ سُفْيَانٌ: قَالَ أَبُو الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ ﷺ فَسَأَلَنَا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «هَلْ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟»، قَالَ: فَأَخْرَجْنَا مِنْ عَيْنَيْهِ كَذَا وَكَذَا قَلَّةً مِنْ ذَلِكَ، وَنَزَلَ فِي حَجَّاجٍ عَيْنَهُ أَرْبَعَةٌ نَفَرٌ، وَكَانَ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ جِرَابٌ فِيهِ تَمْرٌ، فَكَانَ يُعْطِينَا الْقَبْضَةَ، ثُمَّ صَارَ إِلَى الثَّمَرَةِ، فَلَمَّا فَقَدْنَاهَا وَجَدْنَا فَقْدَهَا.

[النسائي في الصيد والذبايح (٤٣٥٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا النَّبِيُّ ﷺ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَنَعِدَ زَادًا، فَمَرَرْنَا بِحُوتٍ قَدْ قَلَفَ بِهِ الْبَحْرُ، فَأَرَدْنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْهُ فَفَهَانَا أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، كُلُوا، فَأَكَلْنَا مِنْهُ أَيَّامًا، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: «إِنْ كَانَ بَقِيَ مَعَكُمْ شَيْءٌ فَأَبْعُوا بِهِ إِلَيْنَا». [النسائي في الصيد والذبايح (٤٣٥٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ ﷺ، وَنَحْنُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةِ عَشَرَ، وَزَوَدْنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ، فَأَعْطَانَا قَبْضَةً قَبْضَةً، فَلَمَّا أَنْ جُزْنَاهُ أَعْطَانَا ثَمَرَةً ثَمَرَةً، حَتَّى إِنْ كُنَّا لَنَمْضُهَا كَمَا يَمْضُ الصَّبِيُّ وَنَشْرَبُ عَلَيْهَا الْمَاءَ، فَلَمَّا فَقَدْنَاهَا وَجَدْنَا فَقْدَهَا، حَتَّى إِنْ كُنَّا لَنَخِطُ الْخَبْطَ بِقِسِينَا وَنَسْفُهُ، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى سَمِينَا جِيشَ الْخَبْطِ، ثُمَّ أَجَزْنَا السَّاحِلَ، فَإِذَا دَابَّةٌ مِثْلُ الْكُثْبِ يُقَالُ لَهُ: الْعَنْبَرُ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ: مَيْتَةٌ، لَا تَأْكُلُوهُ، ثُمَّ قَالَ: جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷺ، وَنَحْنُ مُضْطَرُونَ، كُلُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ، وَجَعَلْنَا مِنْهُ وَشِيقَةً، وَلَقَدْ جَلَسَ فِي مَوْضِعٍ عَيْنَهُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، قَالَ: فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ، فَرَحَلَ بِهِ أَجْسَمَ بَعِيرٍ مِنْ أَبَاعِرِ الْقَوْمِ، فَأَجَارَ تَحْتَهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا جَبَسَكُمْ؟»، قُلْنَا: كُنَّا نَتَّبِعُ عِيرَاتِ قُرَيْشٍ، وَذَكَّرْنَا لَهُ مِنْ أَمْرِ الدَّابَّةِ، فَقَالَ: «ذَلِكَ رِزْقُ رَزَقَكُمُوهُ اللَّهُ ﷻ، أَمَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟»، قَالَ: قُلْنَا: نَعَمْ.

[النسائي في الصيد والذبايح (٤٣٥٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، ومجمع الزوائد ٥٧٩/١٠ كتاب الزهد رقم ١٨٢٧٥، وقال الميثمي: وهو في الصحيح ولكنه قال: ونحن ثلاث مائة، وهنا قال: ستائة وبيضة عشر، رواه الطبراني في الأوسط (٩/٨٥-٨٦ رقم ٩٢٠٢) وفيه زعمة بن صالح، وهو ضعيف].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: غَزَوْنَا جِيشَ الْخَبْطِ، وَأَمِيرُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ ﷺ، فَجَعَلْنَا جُوعًا شَدِيدًا، فَأَلْقَى لَنَا الْبَحْرُ حُوتًا لَمْ تَرَ مِثْلَهُ، يُقَالُ لَهُ: الْعَنْبَرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ نِصْفَ شَهْرٍ، وَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَظْمًا مِنْ عَظَامِهِ، فَكَانَ الرَّكَّابُ يَمُرُّ تَحْتَهُ.

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُخْبِرُ نَحْوًا مِنْ خَبَرِ عَمْرٍو هَذَا، وَزَادَ فِيهِ قَالَ: وَزَوَدْنَا النَّبِيَّ ﷺ جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ، فَكَانَ يَفْبُضُ لَنَا قَبْضَةً قَبْضَةً، ثُمَّ ثَمَرَةً ثَمَرَةً فَنَمْضُهَا وَنَشْرَبُ عَلَيْهَا الْمَاءَ حَتَّى اللَّيْلِ، ثُمَّ نَعِدُ مَا فِي الْجِرَابِ، فَكُنَّا نَجْتَبِي الْخَبْطَ بِقِسِينَا، فَجَعَلْنَا جُوعًا شَدِيدًا، فَأَلْقَى لَنَا الْبَحْرُ حُوتًا مَيْتًا، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: غَزَاةٌ وَجِياعٌ! فَكُلُوا، فَأَكَلْنَا، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ يَنْصَبُ الضِّلْعَ مِنْ أَضْلَاعِهِ فَيَمُرُّ الرَّكَّابُ عَلَى بَعِيرِهِ تَحْتَهُ، وَيَجْلِسُ النَّفَرُ الْخَمْسَةُ فِي مَوْضِعٍ عَيْنَهُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ

وَأَدَهْنَا، حَتَّى صَلَحَتْ أَجْسَامُنَا، وَحَسُنَتْ سَحَنَاتُنَا، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، قَالَ جَابِرٌ ﷺ: فَذَكَرْنَاهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «رِزْقُ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ، فَإِنْ كَانَ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ فَأَطْعِمُونَاهُ»، قَالَ: فَكَانَ مَعَنَا مِنْهُ شَيْءٌ، فَأَرْسَلَ بِهِ إِلَيْهِ بَعْضُ الْقَوْمِ. [مسند أحمد ٢٢/ ٢٤٠، رقم ١٤٣٣٧، ٢٣/ ٢٨٩، رقم ١٥٠٤٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وروى مسلم بسنده عن عبيدة بن الوليد بن عبيدة بن الصّامت، قَالَ: خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي نَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِينَا أَبَا الْيَسْرِ... ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا، وَفِيهِ: وَشَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْجُوعَ، فَقَالَ: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يُطْعِمَكُمْ»، فَأَتَيْنَا سَيْفَ الْبَحْرِ فَزَحَرَ الْبَحْرُ (أي علا موجه) زَحْرَةً، فَأَلْقَى دَابَّةً، فَأَوْرَيْنَا (أي أوقدنا) عَلَى شِقْقِهَا النَّارَ، فَأَطْبَحْنَا وَاشْتَوَيْنَا، وَأَكَلْنَا حَتَّى شَبِعْنَا.

قَالَ جَابِرٌ: فَدَخَلْتُ أَنَا وَقُلَانٌ وَقُلَانٌ، حَتَّى عَدَّ خَمْسَةً، فِي حِجَاجِ عَيْنِهَا (هو عظمها المستدير بها) مَا يَرَانَا أَحَدٌ، حَتَّى خَرَجْنَا، فَأَخَذْنَا ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَقَوَّسْنَاهُ، ثُمَّ دَعَوْنَا بِأَعْظَمِ رَجُلٍ فِي الرِّكْبِ، وَأَعْظَمِ جَهْلٍ فِي الرِّكْبِ، وَأَعْظَمِ كُفْلٍ فِي الرِّكْبِ، فَدَخَلَ تَحْتَهُ مَا يُطَاطَرُ رَأْسُهُ. [مسلم في الزهد والرفائق (٣٠١٤، ٣٠١٦)، (وأعظم كفل) قال الجمهور: المراد بالكفل هنا الكساء الذي يحويه راكب البعير على سنامه لئلا يسقط فيحفظ الكفل الراكب، قال المروزي: قال الأزهرى: ومنه اشتقاق قوله تعالى: ﴿يُؤْتِيكُمُ كُفْلًا مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي نصيبين يحفظانكم من الهلكة كما يحفظ الكفل الراكب، يقال منه: تكفلت البعير وأكفله إذا أدرك ذلك الكساء حول سنامه ثم ركبته، وهذا الكساء كفل].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عُبَادَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عُبَادَةَ ابْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ، عَلَيْهِمُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ، وَزَوْدُهُمْ جَرَابًا مِنْ تَمْرٍ، فَجَعَلَ يَقُوهُمْ إِيَّاهُ حَتَّى صَارَ إِلَى أَنْ يَعُدَّهُ عَلَيْهِمْ عَدَدًا، قَالَ: ثُمَّ نَفَذَ التَّمْرَ حَتَّى كَانَ يُعْطَى كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ ثَمْرَةً، قَالَ: فَفَسَمَهَا يَوْمًا بَيْنَنَا، قَالَ: فَتَقَصَّصْتُ ثَمْرَةً عَنْ رَجُلٍ، فَوَجَدْنَا فَقْدَهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، قَالَ: فَلَمَّا جَهَدْنَا الْجُوعَ أَحْرَجَ اللَّهُ لَنَا دَابَّةً مِنَ الْبَحْرِ، فَأَصْبْنَا مِنْ لَحْوِهَا وَوَدَكِهَا، وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا عِشْرِينَ لَيْلَةً حَتَّى سَمَوْنَا وَابْتَلَلْنَا، وَأَخَذَ أَمِيرُنَا ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهَا، فَوَضَعَهَا عَلَى طَرِيقِهِ ثُمَّ أَمَرَ بِأَجْسَمِ بَعِيرٍ مَعَنَا، فَحَمَلَ عَلَيْهِ أَجْسَمَ رَجُلٍ مِنَّا، قَالَ: فَجَلَسَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَخَرَجَ مِنْ تَحْتِهَا وَمَا مَسَّتْ رَأْسُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرْنَاهُ خَبَرَهَا، وَسَأَلْنَاهُ عَمَّا صَنَعْنَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَكْلِنَا إِيَّاهُ، فَقَالَ: «رِزْقُ رَزَقَكُمُوهُ اللَّهُ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٢-٦٣٣].

وَقَالَ الْوَائِدِيُّ: حَدَّثَنِي دَاوُدُ بْنُ قَيْسٍ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيُّ مِنْ وَلَدِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، وَخَارِجَةُ بْنُ الْحَارِثِ وَبَعْضُهُمْ قَدْ زَادَ فِي الْحَدِيثِ قَالُوا: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فِيهَا الْمَاهِجُونَ وَالْأَنْصَارُ، وَهُمْ ثَلَاثِيَّةٌ رَجُلٍ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ إِلَى حَيٍّ مِنْ جُحَيْنَةَ، فَأَصَابَهُمْ جُوعٌ شَدِيدٌ، فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ بِالزَّادِ فَجُمِعَ حَتَّى إِذَا كَانُوا لَيَقْتَسِمُونَ التَّمْرَةَ، فَقِيلَ لِحَابِرٍ: فَمَا يُغْنِي ثَلَاثَ ثَمَرَةٍ؟ قَالَ: لَقَدْ وَجَدُوا فَقْدَهَا، قَالَ: وَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ حُمُولَةً (ما يحتمل عليه الناس من الدواب) إِنَّمَا

كَانُوا عَلَى أَفْدَامِهِمْ وَأَبَاعَرٍ يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا رَأْدَهُمْ، فَأَكَلُوا الْخُبْطَ، وَهُوَ يَوْمُنِذٌ ذُو مَسْرَةٍ (شبه خوصة تخرج في العضاء وفي كثير من الشجر، أو الأغصان الخضرة الرطبة قبل أن تتلون بلون) حَتَّى إِنَّ شِدْقَ أَحَدِهِمْ بِمَنْزِلَةِ مَشْفَرِ الْبَعِيرِ الْعَصَةِ، فَمَكَثْنَا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَوْ لَقِينَا عَدُوًّا مَا كَانَ بِنَا حَرَكَةً إِلَيْهِ لِمَا بِالنَّاسِ مِنَ الْجُهْدِ، فَقَالَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ ۞: مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي تَمْرًا يَجْزُرُ يَوْفِيَّيَ الْجُرْزَرَ هَاهُنَا وَأَوْفِيَهُ التَّمَرَ بِالْمَدِينَةِ؟ فَجَعَلَ عُمَرُ ۞ يَقُولُ: وَاعْبَاهُ هَذَا الْغَلَامُ! لَا مَالَ لَهُ يَدَانِ فِي مَالٍ غَيْرِهِ! فَوَجَدَ رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَةَ، فَقَالَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ ۞: بِعْنِي جُزْرًا وَأَوْفِيكَ سِقَّةً (جمع وسق وهو الحمل، وقدره الشرع بستين صاعًا، ويروى أيضًا بالشين المعجمة) مِنْ تَمَرٍ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ الْجُهْنِيُّ: وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُكَ، وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ بْنِ ذُلَيْمٍ، قَالَ الْجُهْنِيُّ: مَا أَعْرِفُتِي بِنَسَبِكَ! أَمَّا إِنْ بَنَيْتَ وَيَنْ سَعْدُ خُلَّةً، سَيِّدَ أَهْلِ يَثْرِبَ، فَاتَّبَعَ مِنْهُمْ خَمْسَ جُزُرٍ كُلُّ جُزْرٍ بِوَسْقَيْنِ مِنْ تَمَرٍ، يَشْرُطُ عَلَيْهِ الْبَدَوِيُّ، تَمَرٌ ذَخِيرَةٌ مُصَلَّبَةٌ (أي ييس) مِنْ تَمَرٍ آلِ ذُلَيْمٍ، قَالَ: يَقُولُ قَيْسٌ: نَعَمْ، فَقَالَ الْجُهْنِيُّ: فَأَشْهَدُ لِي، فَأَشْهَدَ لَهُ نَفَرًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَوَعَهُمْ نَفَرًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، قَالَ قَيْسٌ: أَشْهَدُ مَنْ تُحِبُّ، فَكَانَ فِيهِمْ أَشْهَدُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ۞ فَقَالَ عُمَرُ: لَا أَشْهَدُ! هَذَا يَدَانُ وَلَا مَالَ لَهُ، إِنَّمَا الْمَالُ لِأَبِيهِ، قَالَ الْجُهْنِيُّ: وَاللَّهِ مَا كَانَ سَعْدٌ لِيَخْنِي (أي: يسلمه ويخفر ذمته، هو من أحنى عليه) بَابْنِهِ فِي سِقَّةٍ مِنْ تَمَرٍ! وَارَى وَجْهًا حَسَنًا وَفَعَالًا شَرِيفًا، فَكَانَ بَيْنَ عُمَرَ وَبَيْنَ قَيْسٍ كَلَامٌ حَتَّى أَعْلَطَ لَهُ قَيْسٌ الْكَلَامَ، وَأَخَذَ قَيْسُ الْجُرْزَرَ فَحَرَمَهَا لَهُمْ فِي مَوَاطِنَ ثَلَاثَةٍ، كُلُّ يَوْمٍ جُزْرًا، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الرَّابِعَ نَهَا أَمِيرُهُ، وَقَالَ: تُرِيدُ أَنْ تُخْفِرَ ذِمَّتَكَ وَلَا مَالَ لَكَ؟

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ سَهْلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، قَالَ: أَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ وَمَعَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ۞ فَقَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ أَلَّا تَنْحَرَ، أَتُرِيدُ أَنْ تُخْفِرَ ذِمَّتَكَ وَلَا مَالَ لَكَ؟ فَقَالَ قَيْسٌ: يَا أَبَا عُبَيْدَةَ أَتَرَى أَبَا ثَابِتٍ وَهُوَ يَقْضِي دَيْنَ النَّاسِ وَيَحْمِلُ الْكُلَّ وَيُطْعِمُ فِي الْمَجَاعَةِ لَا يَقْضِي سِقَّةَ تَمَرٍ لِقَوْمٍ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ! فَكَادَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنْ يَلِينَ لَهُ وَيَرْكُضَهُ حَتَّى جَعَلَ عُمَرُ يَقُولُ: اعْزِمْ عَلَيْهِ، فَعَزَمَ عَلَيْهِ فَأَقْبَى عَلَيْهِ أَنْ يَنْحَرَ، فَبَقِيَ جُزُورَانِ مَعَهُ حَتَّى وَجَدَ الْقَوْمَ الْخَوَثَ، فَقَدِمَ بِهِمَا قَيْسُ الْمَدِينَةَ طُهْرًا يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهَا.

وَبَلَغَ سَعْدٌ مَا كَانَ أَصَابَ الْقَوْمَ مِنَ الْمَجَاعَةِ، فَقَالَ: إِنْ يَكُنْ قَيْسٌ كَمَا أَعْرِفُهُ فَسَوْفَ يَنْحَرُ لِلْقَوْمِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَيْسٌ لَقِيَهُ سَعْدٌ فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ فِي مَجَاعَةِ الْقَوْمِ حَيْثُ أَصَابَهُمْ؟ قَالَ: نَحَرْتُ، قَالَ: أَصَبْتَ، انْحَرِ! قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: نَحَرْتُ، قَالَ: أَصَبْتَ، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ نَحَرْتُ، قَالَ: أَصَبْتَ، انْحَرِ! قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: هَيْتُ، قَالَ: وَمَنْ نَهَاكَ؟ قَالَ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ أَمِيرِي، قَالَ: وَلَمْ؟ قَالَ: زَعَمَ أَنَّهُ لَا مَالَ لِي، وَإِنَّمَا الْمَالُ لِأَبِيكَ، فَقُلْتُ: أَبِي يَقْضِي عَنِ الْأَبَاعِدِ وَيَحْمِلُ الْكُلَّ وَيُطْعِمُ فِي الْمَجَاعَةِ وَلَا يَصْنَعُ هَذَا بِي! قَالَ: فَلَكَ أَرْبَعُ حَوَاطِطَ (بساتين)، قَالَ: وَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ كِتَابًا، قَالَ: وَآتَى بِالْكِتَابِ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ، فَشَهِدَ فِيهِ،

وَأَتَى عُمَرُ فَأَبَى أَنْ يَشْهَدَ فِيهِ، وَأَدْنَى حَائِطٍ مِنْهَا يَجِدُ مَحْسِنِينَ وَسُقْمًا، وَقَدِمَ الْبَدَوِيُّ مَعَ قَيْسٍ فَأَوْفَاهُ سِفَتَهُ وَحَمَلَهُ وَكَسَاهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَعَلَّ قَيْسٌ، فَقَالَ: «إِنَّهُ فِي بَيْتٍ جُودٍ».

حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ لَنَا الْبَحْرُ حُوتًا مِثْلَ الظَّرْبِ (الجبل الصغير)، فَأَكَلَ الْجَيْشُ مِنْهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عَبِيدَةَ بِضَلْعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنُصِبَ، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرَحَلَتْ ثُمَّ مَرَّتْ تَحْتَهَا فَلَمْ يُصِبْهَا.

حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي دُؤَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَجْلِسَ فِي وَقَبٍ عَيْنِهِ، وَإِنْ كَانَ الرَّكِابُ لِيَمُرَّ بَيْنَ ضِلْعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ عَلَى رَاحِلَتِهِ.

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَجَّازِيِّ عَنْ عُمَرَ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ شُجَاعٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ الْأَعْرَابِيُّ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ قَالَ: يَا أَبَا ثَابِتٍ، وَاللَّهِ مَا مِثْلُ ابْنِكَ صَنَعْتُ وَلَا تَرَكْتُ بَعِيرٍ مَالٍ، فَأَبْنَيْكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَةِ قَوْمِهِ، هَذَا أَمِيرٌ أَنْ أُبَيِّعَهُ، قُلْتُ: لَمْ؟ قَالَ: لَا مَالَ لَهُ! فَلَمَّا انْتَسَبَ إِلَيْكَ عَرَفْتُهُ فَتَقَدَّمْتُ لِمَا عَرَفْتُ أَنَّكَ تَسْمُو عَلَى مَعَالِي الْأَخْلَاقِ وَجَسِيمِهَا، وَأَنْتَ غَيْرُ مُدْمٍ بِمَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ لَدَيْكَ، قَالَ: فَأَعْطَى ابْنَهُ يَوْمَئِذٍ أَمْوَالًا عَظَمًا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٧٤-٧٧٧].

العرض الأدبي للسرية [صور من جهاد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للخالدي ٨٥-١٠١ بتصرف يسير]:

مجموعة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ وإكرام الله ﷻ لها على (سيف البحر)

مهمة مجموعة أبي عبيدة ﷺ على سيف البحر:

كان رسول الله ﷺ يرسل (السرايا) الجهادية للصحابة المجاهدين؛ ليتعرضوا لتجارات قريش، يرصدوها أو يهاجموها، فيستولوا على ما فيها.

واستمر هذا حتى صلح الحديبية في نهاية السنة السادسة من الهجرة، حيث تم التوقيع فيه على هدنة بينه ﷺ وبين قريش لمدة عشر سنوات.

وهذا الفعل من رسول الله ﷺ جهادي مشروع؛ لأنه كان في حالة حرب مع المشركين في مكة، والحرب قد تكون عسكرية، وقد تكون اقتصادية، والهدف من الحرب الاقتصادية هو إهلاك العدو، وإضعاف اقتصاده، والسيطرة على أمواله وموارده؛ ليؤدي هذا إلى هزيمته واستسلامه.

وكانت (السرية) المجاهدة مكونة من (مجموعة) من الصحابة المجاهدين، يشكلها رسول الله ﷺ ويجعل أحد أصحابه أميراً عليها، ويأمره بالتوجه مع إخوانه إلى منطقة معينة، يعينها له، ويحدد له مهمة جهادية لينفذها.

شكّل رسول الله ﷺ بعد غزوة الأحزاب - وقبل صلح الحديبية - سرية مجاهدة وأمر عليها أبا عبيدة بن الجراح ﷺ، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين إلى الإسلام في مكة.

وكان عدد أفرادها يزيد على الثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار، منهم عمر بن الخطاب، ومنهم قيس بن سعد بن عبادة، ومنهم جابر بن عبد الله ﷺ.

وأمرهم رسول الله ﷺ بالتوجه إلى منطقة (سيف البحر)؛ ليرصلوا فيها (عيرًا) لقريش. والعرير قافلة تجارية تخرج من مكة إلى الشام، أو تعود من الشام إلى مكة، محملة بالبضائع والأموال والأمتعة، يحرسها مجموعة من الرجال.

كما أمرهم ﷺ بتأديب أحياء من قبيلة (جهينة) مقيمين هناك؛ كي لا يتعرضوا للمسلمين بالأذى!

جرباب تمر ثلاثمائة مجاهد:

وكان تشكيل هذه المجموعة المجاهدة في ظرف عصيب، مرَّ به المسلمون في المدينة، حيث كانوا يعيشون فترة فقر شديدة، لا يكادون يجدون ما يأكلون، ومع أن حياتهم في المدينة كانت دائمًا هكذا، يعانون فيها من الفقر والجوع ما يعانون، إلا أنهم في تلك الفترة كانوا أشد فقرًا! ومع هذا فلا بد أن تستمر العمليات الجهادية، ومنذ متى كان فقر الصحابة وجوعهم مانعًا لهم عن الجهاد؟ كانوا يستعلون على فقرهم وجوعهم، ويصبرون على فاقتهم وحاجتهم، ويجاهدون بقوة وشجاعة!

بحث رسول الله ﷺ عن زاد وتموين يزود فيه هذه المجموعة المجاهدة، حيث سيغيبون عن المدينة مدة، ولا بد أن يكون معهم طعام يأكلون منه في سيرهم الجهادي الشاق! لكن الرسول ﷺ لم يجد لهم إلا جربابًا من التمر! والجرباب وعاء من الجلد أو غيره، يوضع فيه التمر؛ ليسهل حمله ويتم حفظه.

وماذا يكفي جرباب من تمر لأكثر من ثلاثمائة رجل، يقطعون مسافات طويلة، ويغيبون مدة طويلة، الله أعلم بها؟ وليس معهم طعام غيره؟!

لكن ماذا يفعل ﷺ؟ لم يجد لهم من الطعام غير هذا، فليأخذوا جرباب التمر، وليخرجوا للجهاد في سبيل الله، متوكلين على الله، وإن الله سيرزقهم ولن يضيعهم أبدًا.

وقبل أن يخرجوا من المدينة أوصاهم رسول الله ﷺ بوصاياه التي كان يوصي المجاهدين بها، من تقوى وإخلاص لله، وأخوة ومحبة بينهم، وطاعة لأمرهم.

أبو عبيدة ﷺ يقنن الطعام في تناقص متواصل:

خرج المجاهدون من المدينة متوجهين إلى سيف البحر، وكان أميرهم أبو عبيدة ﷺ يشرف على توزيع الطعام عليهم إشرافًا مباشرًا يوزعه بيديه؛ لأن الزاد قليل، وسفرهم طويل، ولا بد أن (يقنن) توزيع الطعام!

في الأيام الأولى لمسيرهم كان يعطي كل رجل (قبضة) من التمر، لليوم كاملاً! وهذه القبضة قليلة، قد يأكلها الرجل في وجبة واحدة ثم يطلب المزيد، فكيف تكفيه ليوم كامل؟ وبعد أيام من التوزيع على هذا الأساس تناقص التمر، فقلل أبو عبيدة ﷺ الكمية، وصار يصرف للرجل الواحد ثلاث حبات من التمر لليوم الواحد! بحيث يأكل حبة تمر واحدة في كل وجبة! ثم تناقص التمر، فصار يصرف للرجل حبة تمر واحدة طيلة اليوم، وأوصى أبو عبيدة ﷺ رجاله المجاهدين قائلاً: لا يأكل أحدكم تمرته، لأنه إن أكلها فلن يجد غيرها، وعليه أن يمصها مصّاً، ويشرب عليها ماء، ثم يخرجها من فمه، ويضعها في جيبه أو رحله، وفي الوجبة التالية يمصها مرة ثانية، ويشرب عليها الماء، ثم يحتفظ بها للوجبة الثالثة!

وهكذا مضت أيام عديدة، وزاد المجاهد منهم حبة تمر واحدة لليوم كله يمصها كما يمص الصبي الصغير، ثلاث مرات في اليوم، ثم يأكلها ويمضغها في المساء! هذا وهم يسرون على أقدامهم يقطعون الأراضي الشاسعة، ويبدلون فيه الكثير من الجهد والقوة والطاقة!

حبة تمر لثلاثة رجال في اليوم:

واضطر أبو عبيدة ﷺ إلى تخفيض كمية التمر، وهل هناك تخفيض أقل من حبة تمر للرجل طيلة اليوم؟ نعم! إن الضرورة لها أحكام!

صار يشرك كل ثلاثة رجال في حبة واحدة من التمر، بحيث يكون نصيب الواحد منهم (ثلث) حبة تمر طيلة اليوم! يمص هذا الثلث من الحبة مصّاً ويشرب عليه الماء! ولما روى جابر بن عبد الله ﷺ أحد جنود هذه المجموعة ذلك لأحد الرواة فيما بعد، استغرب الرجل، وقال لجابر ﷺ: ماذا ينفع للرجل منكم ثلث حبة تمر في اليوم؟ قال جابر ﷺ: كنا نجوع، ونستعين بالله.

ثم نفذ ما معهم من التمر نهائياً، ولم يبق منه شيء، وبنفاد التمر وانتهائه وصلوا إلى المكان الذي وجههم له رسول الله ﷺ، فخطوا رحالهم في منطقة (سيف البحر) وليس معهم شيء من الزاد أو الطعام أو التمر!

هكذا إذن كان طعام هذا الجيش المجاهد: قبضة من التمر في اليوم! ثم ثلاث حبات من التمر في اليوم! ثم حبة واحدة من التمر في اليوم! ثم ثلث حبة من التمر في اليوم! ثم لا شيء من الطعام، لا من التمر ولا غيره!

عندما نتذكر هذا، نتذكر مقدار ما بذل الصحابة الكرام ﷺ من الجهد والمشقة والتعب لنصرة هذا الدين، وجهاد أعداء الله الكافرين، وإلا فماذا نقول في هذه المجموعة المجاهدة، التي خرجت للجهاد،

وابتعدت عن المدينة مسافة طويلة، والواحد من أفرادها لا يجد حبة تمر يأكلها طيلة اليوم فيسير يومه على رجليه، وهو جائع جوعاً شديداً؟! نزلوا في منطقة (سيف البحر) يرصدون غير قريش، وليس معهم شيء يأكلونه! ومن الممكن أن يهاجمهم الأعداء، وهم على هذه الحالة من الجوع والضعف والإعياء! فكيف يقاتلونه، إنهم يخشون أن لا يقووا على الوقوف في الميدان لقتاله؛ لأنه لم يعد لهم طاقة ولا قوة، وهذا هو الذي يشغل بالهم!، وليس عدم وجود طعام يأكلونه!

المجاهدون يأكلون ورق الشجر:

كان في المنطقة بعض الأشجار الصخرافية تسمى (العضاه) ولها ورق أخضر صغير، يكون حول شوك الشجر الصغير، وكانت الإبل ترعى ذلك الورق وتأكله!

لم يجد المجاهدون في المنطقة شيئاً يأكلونه، وفكروا ماذا يفعلون؟ وإذا فاجأهم قوم من الأعداء فكيف يقاتلون؟ نصحهم واحد منهم قائلاً: يا قوم! أنتم جائعون، والجوع أجهدكم، ويخشى أن يفاجئكم الأعداء، فتعجزون عنهم، وليس عندكم طعام، وها هو ورق (العضاه) الأخضر أمامكم، فاخبطوه بعصيكم خبطاً، ثم كلوه كما تأكله الإبل؛ ليمنحكم شيئاً من القوة والطاقة، تقاتلون بها عدوكم!

وأقبل الصحابة المجاهدون على شجر العضاه، يضربونه ضرباً، ويخبطونه خبطاً بعصيهم! فيسقط الورق على الأرض، فيجمعون ذلك الورق لأكله! منهم من كان يمضغ ذلك الورق مضغاً، ثم يمص عليه الماء ليسهل ازدراده وبلعه! ومنهم من كان يبله بالماء ليكون ليناً طرياً، ثم يأكله! ومنهم من كان يخفف ذلك الورق، فإذا ييس دقّه، فإذا كان كالطحين أكله وشرب عليه الماء!

وتأثرت أشداقهم بهذا الورق الذي يمضغونه، ونزل منها الدم، وصارت لهم (مشافر) تكاد تشبه مشافر الإبل! واستمروا أياماً ليس لهم طعام إلا هذا الورق الذي يخبطونه؛ ولهذا سميت تلك السرية (سرية الخبط)!

ولذلك قال جابر   لمحدثه: ثم كنا نخبط الخبط بقسينا، ثم نسفه ونشرب عليه من الماء، حتى شُـمينا (جيش الخبط)! فعلوا ذلك وهم صابرون محتسبون، يصبرون على آلام الجوع، وعلى آلام ورق الشجر الذي يأكلونه، يجرح أشداقهم، ويؤثر في أمعائهم، ويحتسبون ذلك عند الله!

قيس بن سعد   يشتري لهم الجمال بالدين:

فَكَرَّ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ   بِبَنِي عَدْنَةَ   أَحَدِ أَفْرَادِ الْمَجْمُوعَةِ الْمُجَاهِدَةِ - فِي مَخْرَجٍ، يَرِيحُ بِهِ إِخْوَانَهُ، وَيَقْدِمُ لَهُمْ بَعْضَ الطَّعَامِ، وَكَانَ شَابًّا جَوَادًّا كَرِيًّا، وَرَثَ الْكَرَمَ وَالْجُودَ عَنْ جَدِّهِ وَأَبِيهِ، وَأَبُوهُ هُوَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ سَعْدُ بْنُ عِبَادَةَ  ، زَعِيمُ الْخَزْرَجِ، وَسَيِّدُ الْأَنْصَارِ!

لم يكن مع قيس بن سعد   مال يحمله، ليشترى به ذبائح لإخوانه يطعمهم إياها، فبحث عن رجل في المنطقة يشتري منه جِـالاً على أن يعطيه ثمنها تمرًا عندما يعودون إلى المدينة!

بحث عن رجل من قبيلة (جهينة) المقيمين في تلك المنطقة، المسالين للمسلمين، يشتري منه الجمال بالدين! كان يقول للجهنيين: من يشتري مني تمرًا بجمال! يعطيني الجمال هنا وأعطيه التمر في المدينة بعد ذلك؟

قيس بن سعد رضي الله عنه يستدين من أجل إخوانه! يريد أن يقدم لهم لحمًا، إكرامًا لهم! هذا هو الجود والكرم في أرفع صورته!

ولما سمع عمرو بن الخطاب رضي الله عنه - وكان أحد جنود المجموعة - قال: عجبا لهذا الغلام! إنه لا مال له، وهو يستدين على مال أبيه!

ولكن الصحابة أكبروا من قيس موقفه، وأثنوا عليه كثيرا.

لقي قيس بن سعد رضي الله عنه رجلاً جهنيًا عنده إبل كثيرة، فقال له: أتبيعني جمالا الآن وأعطيك ثمنها أوسقة من التمر في المدينة فيما بعد؟

فقال له الجهني: أنا أفعل، لكن من أنت؟ إنني لا أعرفك!

قال قيس: أنا قيس بن سعد بن عبادة بن ذُلَيْم!

عرف الجهنيُّ أباه، فهو زعيم الخزرج، مشهورٌ بالغنَى والجود والكرم، فقال لقيس: إن بيني وبين أبيك خلةٌ وصداقة، وهو سيد أهل يثرب - اسم المدينة قبل الإسلام - وأبيعك ما تريد، على أن يكون كلُّ بعيرٍ بوسقين من تمر المدينة، من أجود تمرها، وهو تمر (آل ذُلَيْم) أهلك!

واتفقا على ذلك، وأشهد على البيع بعض الرجال المجاهدين، وطُلب من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يشهد على البيع، فرفض أن يشهد، وقال: قيس بن سعد لا مال له، وقد استدان على مال أبيه! فهل بقي أبوه ويدفع الثمن؟

فغضب قيس رضي الله عنه وجرى بينه وبين عمر رضي الله عنه كلام، وقال بعض الصحابة لعمر: ما كان لسعد بن عبادة أن يخفر ذمة ابنه قيس، ويرفض دفع ثمن الإبل، فهو كريم معروف!

اشترى قيس بن سعد رضي الله عنه من الجهنيِّ أحد عشر جملاً، كلُّ جمليٍّ بوسقين من تمر آل ذُلَيْم في المدينة، يدفعها له عندما يأتي الجهنيُّ إلى المدينة.

وينحر لهم تسعة جمال منها:

وساق قيس رضي الله عنه الجمال، وأتى بها لإخوانه، يكرمهم بها ليأكلوا من لحمها!

كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ومعلوم أنَّ الجمَلَ يكفي مائة رجلٍ يأكلونه، وهذا معناه أنه يحتاجون إلى ثلاثة جمال يذبحونها لتكفيهم!

نحر قيسٌ لإخوانه في اليوم الأول ثلاثة جمال، وأكرمهم بها، فذبحوها وطبخوها وأكلوها، بعد انقطاع عن اللحم والطعام أيامًا عديدة، فشكروا الله على هذه النعمة، وأثنوا على قيس خيرًا؛ لأنه استدان على مال أبيه ليكرمهم باللحم!

وبعد أيام نحر لهم ثلاثة جمال أخرى، وبعد ذلك بأيام نحر لهم ثلاثة جمال أخرى، فيكون بذلك قد قدّم لإخوانه تسعة جمال، وبقيَ عنده جملان اثنان!

ولما أراد أن ينحر الجملين الباقيين منعه الأمير أبو عبيدة ﷺ وقال له: عزمت عليك يا قيس ألا تنحر، أتريد أن تخفر ذمتك؟ ويُخشى أن لا يعترف أبوك بهذا الدِّين؟ وأن لا يدفع للجهمي ثمن جماله! فقال قيس: أترى أبا ثابت (كنية أبيه سعد بن عبادة ﷺ) يقضي ديون الناس، ويُطعم في المجاعة، ويحمل الكلَّ الضعيف، ولا يقضي دينًا استدته لقوم مجاهدين في سبيل الله؟

وبما أن الأمير أبا عبيدة ﷺ عزم على قيس أن لا ينحر الجملين الباقيين، فقد التزم قيس ﷺ وأطاع أميره، وبقي الجملان مع المجموعة المجاهدة، ولما عادوا بعد ذلك إلى المدينة، كانوا يتعاقبون على ركوبها! وعاد المجاهدون إلى شجر (العضاه) يخبطونه بعصيهم، ويأكلون ورقه الذي يتساقط، ذلك الورق الذي قرَّح أشداقهم، وأذى أمعاءهم.

واستمروا على ذلك أيامًا، صابرين محتسبين، منتظرين الفرج من الله سبحانه.

الله ﷻ يكرمهم بحوت العنبر العجيب:

وأخيرًا جاءهم الفرجُ من عند الله! إنهم جنود الله وأوليأؤه، وقد خرجوا مجاهدين في سبيله، ناصرين لدينه، مواجهين لأعدائه، مُطيعين لرسوله ﷺ، وعلم منهم الصدق والإخلاص والجدية، وابتلاهم بالجوع، فصبروا وثبتوا، وجاهدوا وصدقوا!

إنهم يستحقون التكريم من الله سبحانه، وهو على كل شيء قدير، فعَلَّ لما يريد، يقول للشيء كُن فيكون، لا راد لأمره، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء!

ساق الله لهم رزقًا لم يكونوا يتوقعونه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

[الطلاق].

في صباح أحد الأيام، صَلَّى المجاهدون الفجر خلف أميرهم أبي عبيدة ﷺ، وجلسوا يذكرون الله حتى طلعت الشمس، وكانوا على شاطئ البحر الأحمر، ولما طلعت الشمس نظر أحدهم فرأى منظرًا عجيبًا على شاطئ البحر، رأى شيئًا كبيرًا ضخمًا، كأنه كثيبٌ من رمل، أو كأنه جبلٌ صغير على الشاطئ! ما هذا؟ هل هو جبل صغير؟ عهدتُ بهذه المنطقة أنها سهلٌ منفسحٌ على الشاطئ، ليس فيها تلٌ ولا جبل! فمن أين (نبت) فيها هذا الجبل فجأة؟

نادى الرجل إخوانه قائلاً: يا قوم! انظروا، ألا ترون ما أرى على الشاطئ؟
ونظروا نحو الجهة التي أشار أخوهم إليها، فرأوا ذلك المنظر العجيب، الذي فوجئوا به، وتوجهوا
إليه يتعرفون عليه!

قال الذين سبقوا إخوانهم إليه: يا قوم، إنه (حوت العنبر) قذفه البحر على الشاطئ!
واجتمع المجاهدون حول (حوت العنبر) ينظرون إليه ويتفحصونه، ويتعجبون من ضخامته!
سبحان الله: حوت عظيم كبير، كأنه تلّ رمل، أو كأنه جبل صغير! كم وزنه؟ لعله يزنُ آلاف الأطنان؟
كم طوله وعرضه؟ لعله عدة أمتار!
على كثرة ما رأوا من أسماك وحيتان ودواب البحر، ما سبق أن رأوا حوتاً أو دابةً بحرية، بهذه
الضخامة! إنه خلّق عظيم من خلق الله!

أبو عبيدة ﷺ يفتي لهم بالأكل منه بعد تردد:

وقفوا أمام حوت العنبر العجيب مفكرين متسائلين: إنه حوت بحري، وقد أحل الله للمسلمين صيد
البحر، فحيتانه وأسماكه ودوابه حلال للمسلمين! لكنه (حوت ميت)! وقد حرّم الله على المسلمين أكل
الميتة! ومع أنه (ميتة) فإن الله أباح أكل الميتة للمضطر، فإذا فقد المسلم الطعام، ولم يجد ما يأكله، وأوشك
على الموت جوعاً، فإن الله أباح له أكل الميتة!
حوت البحر حلال، لكنه ميت، والميتة حرام، صحيح ولكنهم مضطرون، والميتة حلالٌ للمضطر،
وهم مضطرون!

إنها أفكار تردّ عليهم، فهل يأكلون من هذا الحوت الكبير الميت أم لا؟

قال لهم أميرهم أبو عبيدة: لا تأكلوا منه، إنه ميتة!

فتوقفوا ولم يأكلوا، رغم حاجتهم الماسة، وجوعهم الشديد، التزاماً بنهي الأمير، وطاعة له.
ثم فكّر الأمير، وأعاد النظر في المسألة: إن الحوت ميتة، لكن المجاهدين مضطرون ومسافرون
وجائعون، وليس عندهم ما يأكلون، ولو لم يأكلوا لهلكوا وماتوا جوعاً، فشرّح الله صدره للسباح لهم
بالأكل، وأنه جائز للضرورة!

فقال لهم: يا قوم، نحن رسلُ رسول الله ﷺ، وقد خرجنا مجاهدين في سبيل الله، وليس معنا ما نأكله،
وقد اضطررتم للأكل منه، فكلوا باسم الله!

أكلوا منه شهراً كاملاً حتى سمّنوا:

فرح المجاهدون بإذن الأمير، وشكروا الله على ما أكرمهم به، وساقه لهم، وزال الخرجُ من نفوسهم،
فأقبلوا على (حوت العنبر) العظيم العجيب، وصاروا يقتطعون منه اللحم يأكلونه!

إنه كبير كالتل الكبير، أو الجبل الصغير، وسيكفيهم مدةً طويلة.
أخبر جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنهم كانوا يقطعون منه قطعة اللحم الكبيرة، القطعة الواحدة بحجم الثور، ثم يُقَطَّعُونَهَا إِلَى قِطْعِ أَصْغَرٍ، فَيَطْبَخُونَهَا وَيَأْكُلُونَهَا!
وكانوا يَغْتَرِفُونَ الدَّهْنَ مِنْ (تجوف) عينه بالجرار الكبيرة اغترافاً! فكَمَ كان ذلك الدهن؟ وكم كانت كميته؟

استمروا شهراً كاملاً، يأكلون من لحمه ودهنه، ولتتصور مقدار وكمية لحمه، الذي كفى أكثر من ثلاثمائة رجل شهراً كاملاً، وبقي منه الكثير!
عادت إليهم قوتهم، وامتلات أجسامهم حيوية وطاقية، وسمنت أبدانهم! كيف لا يحصل لهم ذلك، وهم جالسون أكثر من شهر بجانب هذا الحوت العجيب، يأكلون منه كل يوم ثلاث وجبات!
ضخامة الحوت من خلال وقب عينه وضلعه:

وبعدما اقتطعوا كثيراً من لحمه، وأخذوا كثيراً من دهنه، أرادوا أن يقفوا على مقدار ضخامته وكبر حجمه... كانوا قد أفرغوا (وقب) عينه من الدهن، وهو ما في داخل عينه من تجوف، وأصبح وقب عينه فارغاً، فأرادوا أن يقفوا على ضخامته.

دعا أبو عبيدة رضي الله عنه ثلاثة عشر رجلاً منهم، فأجلسهم في وقب عينه، فوسعهم واستوعبهم! أمر عجيب حقاً، ثلاثة عشر رجلاً يجلسون في عين هذا الحوت! فما مساحتها؟ وكأن عينه بحجم سيارة كبيرة تتسع لهذا العدد من الرجال، وإذا كانت عينه بهذه المساحة، فما مقدار حجم الحوت كله!
وفي يوم آخر جاؤوا بضلع من أضلاع الحوت، فإذا به كأنه قوس كبير! نصبوا هذا الضلع على شكل (قوس)، وصاروا ينظرون إليه، متعجبين من ارتفاعه وعلوه!

ودعا أبو عبيدة رضي الله عنه أطول رجل فيهم، وهو قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه ثم أمر بإحضار أعظم بعر عندهم، وأمر بوضع أكبر رحل عليه، ثم أمر قيس بن سعد رضي الله عنه أن يركب البعر، وأن يرفع رأسه، ثم يمر من تحت ضلع الحوت المنصوب!

وقام قيس بن سعد رضي الله عنه بالعملية العجيبة المثيرة، ومر من تحت الضلع - القوس - المنصوب، ولم يُصَبْ رأسه الضلع، فما مقدار طول الضلع؟ طوله عدة أمتار!

إن هاتين الحادتين تشيران إلى ضخامة هذا الحوت! ثلاثة عشر - رجلاً يجلسون في عينه فتسعهم وتستوعبهم، وأطول رجل يركب أطول بعر ويمر من تحت ضلعه المنصوب!

إنه تَكْرِيمٌ من الله ﷻ لهؤلاء الجنود الربانيين المجاهدين، فهو الذي أمر ماء البحر بحمل هذا الحوت العجيب الضخم، ولا ندري من أي البحار والمحيطات جيء به، والله هو الذي أمر البحر بأن يقذف هذا الحوت على شاطئه، بجانب المجاهدين! فجعله رزقاً خاصاً، ساقه لهم، ومكّنهم منه!

إن الأمر ليس حادثاً عادياً لكنه حادث خاص، خارق للعادة، إنه (كرامة) من كرامات أصحاب رسول الله ﷺ، أكرمهم الله بها.

ونعلم أن المعجزة والكرامة يلتقيان على أن كلاً منهما هو أمر خارق للعادة، لا يستطيع الإنسان فعله، وإنما هو من فعل الله وأمره.. ويفترقان في أن المعجزة الخارقة هي التي يُجريها الله على يد الأنبياء، أما الكرامة فهي الأمر الخارق الذي يجريه الله على يد الأولياء، فالمعجزة للنبي، والكرامة للولي!

عودة المجاهدين ومعهم وشائق من لحم الحوت:

لقد كان حوت العنبر العجيب (كرامة) من كرامات هؤلاء الصحابة المجاهدين! وبعدها أقاموا على الحوت شهراً كاملاً، رأى الأمير أن مهمتهم قد انتهت، فقد وجههم رسول الله ﷺ إلى منطقة (سيف البحر) لرصد عير قريش، وتأديب المشاغبين من قبيلة جُهينة.

ولما وصلوا المنطقة قبل أكثر من شهر هرب المشاغبون من أمام المجاهدين، وانتظروا مرور قافلة قريش التجارية، فلم تمر! إذن انتهت مهمتهم الجهادية في المنطقة، وسلمهم الله فلم ينشب قتال بينهم وبين أعدائهم؛ لذلك لابد من العودة إلى المدينة!

وأثناء إقامتهم في المنطقة، وفي فترة ابتلائهم بالجوع، علم المسلمون في المدينة بما يعانيه هؤلاء المجاهدون من جوع وحاجة، ودعوا لهم بالفرج.

وعلم بذلك سعد بن عبادة ﷺ، فتوقع أن يجتهد ابنه قيس في إكرامهم، وقال: إن يكن قيس كما أعرفه وأعهده من الجود والكرم، فسوف ينحر لهم الجمال!

وكان قيس عند حسن ظن أبيه سعد ﷺ، فقد عرفنا أنه (استدان) أحد عشر - جملاً، ونحر لهم تسعة جمال منها!

أصدر أبو عبيدة ﷺ أمره إلى إخوانه المجاهدين بالاستعداد للعودة إلى المدينة.

وقبل رحيلهم أحبوا أن يتزودوا بشيء من لحم الحوت، يأكلون منه في طريق العودة، ويأخذون الباقي معهم إلى المدينة!

قَطَعُوا قِطْعاً من لحم الحوت، وسَلَقُوهَا بالماء على النار سَلَقاً، كي لا تفسد أثناء الرحلة، وبعدها سَلَقُوهَا صَارَتْ (وشائق) وحملوها معهم، وفي الطريق كانوا يأخذون هذه الوشائق المسلوقة، فيُنْضِجُونَهَا إنْضَاجاً جيداً، ثم يأكلونها!

وعاد المجاهدون إلى المدينة سالمين غانمين مفلحين، كفاهم الله القتال، فلم يحاربوا هناك عدواً، ومَنَّ الله عليهم بحوت العنبر، أكلوا منه حتى شبعوا وسمتوا، وعادوا إلى المدينة أحسن صحة، وأسمن أبداناً، وأكثر قوة وحيوية وبهاء وإشراقاً! وعادوا حامدين شاكرين لله على ما أنعم عليهم به من النعم، وأكرمهم به من الكرامة!

المجاهدون يُطعمون الرسول   من لحم الحوت:

قابلوا رسول الله  ، ومعهم (وشائق) باقية من لحم الحوت، وذكروا له قصتهم والأحداث التي مرت بهم بالتفصيل.

ثم ذكروا له أمر (الحوت العجيب)، وسألوه عن حكم أكلهم منه! بعدما أكلوا منه! وكان سؤالهم بهدف طمأنينة قلوبهم، وإزالة ما قد يعلق ببعضها من التحرج، فهم يعتمدون على فتوى أميرهم أبي عبيدة  ، ويعلمون أنه عالم من علماء الصحابة، قادر على الحكم والاجتهاد والفتوى! وقد أكلوا من الحوت ما أكلوا بناء على فتواه، لكنهم سألوا رسول الله   لزيادة اليقين والطمأنينة.

فقال لهم رسول الله  : هو رزق ساقه الله إليكم، فهل معكم منه شيء فتطعمونا؟! قالوا: نعم بقي معنا (وشائق)، قدموها لرسول  ، فأكل منها! وبذلك أيقنوا أن الأكل من ذلك الحوت مباح، وأنه حلال طيب، وزال ما في قلوب بعضهم من التحرج.

واستخرجوا من ذلك حكماً شرعياً هو: إن جميع ميتات البحر حلال، وجميع أسماك وحيتان ودواب البحر حلال، وإن المسلم إذا وجد حيتاناً أو أسماكاً طافية على وجه الماء ميتة، أو ألقاها البحر على الشاطئ، فإنها حلال وليست حراماً، والدليل على ذلك فعل المجاهدين، وأكلهم من لحم الحوت الميت على الشاطئ وإطعامهم رسول   منه.

سعد بن عبادة   يشتي على ابنه قيس   لكرمه:

بعد ذلك ذهب قيس بن سعد بن عبادة إلى أبيه  ، فقص عليه ما جرى لهذه المجموعة المجاهدة من أحداث، وما أصابهم من جوع شديد!

فقال له أبوه: ماذا فعلت لإخوانك حينما أصابهم الجوع؟

قال قيس: نحرث ثلاثة جمال استدنتها على ثمر أدفعه لصاحبها في المدينة!

قال له أبوه: أصبت وأحسن، انحر! ثم ماذا فعلت؟

قال قيس: ثم نحرث بعد ذلك ثلاثة جمال.

قال أبوه: أصبت وأحسن، انحر! ثم ماذا فعلت؟

قال قيس: ثم نحرث بعد ذلك ثلاثة جمال.

قال أبوه: أصبت وأحسن، انحر! ثم ماذا فعلت؟

قال قيس: بقي معي جملان لم أنحرهما، لأنني نهيْتُ عن ذلك!

استغرب أبوه، وقال متسائلاً منكراً: ومنْ هناك؟

قال قيس: نهاني أميري أبو عبيدة؟

قال أبوه: ولماذا هناك أبو عبيدة؟

قال قيس: قال لي أبو عبيدة: إنك يا قيس لا مال لك، والمال مال أهلك، وأنت استدنت ثمن الجمال دينًا على مال أهلك، ونخشي أن لا يدفع أبوك الدين!

قال أبوه: ماذا قلت له؟

قال قيس: قلت له: إن أبي كريم، يقضي عن الأبعد، ويحمل الكلّ الضعيف، ويطعم في المجاعة، يفعل هذا مع الغريب، ألا يفعله مع ابنه؟

أعجب سعد بن عبادَة ﷺ بموقف ابنه قيس، وكلامه مع الأمير، واستدانت على مال أبيه ليكرم إخوانه!

ويمنحه أربعة بساتين مكافأة بشهادة أبي عبيدة ﷺ:

وقرر سعد بن عبادَة ﷺ أن يكرم ابنه، وأن يعطيه عطية ثمينة لإكرامه إخوانه، فأعطاه أربعة بساتين من النخيل! أقل بستان منها يؤخذ منه خمسون وسقًا من أجود أنواع التمر!

وإن قيسًا ﷺ يستحق هذه الجائزة والمكافأة من أبيه؛ لأن الجود والكرم متعمق في شخصيته.

ولما أعطاه البساتين الأربعة، وكتب بذلك كتابًا، أراد الوالد أن يشهد على ذلك بعض الصحابة.

اختار سعد بن عبادَة ﷺ أمير المجموعة المجاهدة أبا عبيدة بن الجراح ﷺ، ليشهد عليه! ويبدو أن السبب في ذلك هو أن أبا عبيدة ﷺ نهى قيس بن سعد رضي الله عنه عن نحر باقي الجمال، وخشي أن لا يعترف أبوه بالدين، وأن لا يدفعه لصاحبه، بناء على كلام عمر بن الخطاب لأبي عبيدة رضي الله عنه.

اختار سعدُ أبا عبيدة رضي الله عنه ليشهد على الكتاب، بأنه أعطى ابنه قيسًا أربعة بساتين نخل مثمرة، مكافأة له على إكرامه المجاهدين، عندما نحر لهم تسعة جمال! ليعرف أن الأب رضي كرم الابن، ويريد منه الكثير من الكرم، فهو لم يكتف بالاعتراف بدين ابنه، وسداده عنه، وإنما كافأه على ذلك، بشهادة أمير المجاهدين أبي عبيدة ﷺ!

ولما علم النبي ﷺ بما فعله قيس بن سعد رضي الله عنه، ونحره تسعة جمال إكرامًا لإخوانه المجاهدين، وشرائها بالدين، أعجب به، وأثنى عليه، وقال رضي الله عنه: إنه جواد، في بيت جود!

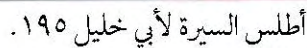
وبعد فترة قصيرة جاء الأعرابي الجهنيُّ إلى سعد بن عبادَة ﷺ في المدينة ليأخذ ثمن جماله الأحد عشر، وقابل سعد بن عبادَة - وكانت له به صلة من قبل - فأخبره الخبر، وأثنى على ابنه قيس.

وقال الجهني لابن عبادَة: يا أبا ثابت، إن ابنك قيسًا سيد من سادات قومه، وهو كريم من بيت كرم! فأعطاه ابنُ عبادَة ﷺ أوسقة التمر التي اتفق عليها مع ابنه ثمنًا لجماله. اهـ.

مصادر ومراجع للدراسة:

- أ - كتب السنة: جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٧/ ٣٨-٤٦، مجمع الزوائد للهيتمي (٨٠٧هـ) ١٠/ ٥٧٩، فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٧/ ٦٧٨-٦٨٣، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢١-٧٢٢.
- ب - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦٣٢-٦٣٣، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٧٤-٧٧٧، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/ ١٢٢-١٢٣، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/ ٣٢-٣٣، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٤٠٦-٤٠٩، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٣٨٩-٣٩٤، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٥٠٢-٥٠٥، إمتاع الأسباع للمقرئزي (٨٤٥هـ) ١/ ٣٤٦، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٢٧٥-٢٨٦.
- ج - كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٤٣٣هـ) ٢/ ٤٣٣، السيرة النبوية لرزق الله (٤٧٩-٤٨٠هـ) السيرة النبوية للصلابي (٣١٣-٣١٧هـ).
- د - كتب الغزوات والسرايا: فتح مكة لباشميل (٤٣-٤٦هـ)، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي (١٣٩-١٤١هـ)، فقه السرايا للعباسي (١٨٦-١٨٧هـ) ٢١١-٢١٥، السرايا والبحوث حول المدينة ومكة لبريك (١١٥-١٢٤هـ).

(1)



البحر المتوسط (المتوسط)
فلسطين
ألبانيا
مؤتة
معان
كعب بن عمير الغفاري
أيلة
سبعا
مدین
بلي
عمرو بن العاص
ضبا
جدام
الوجه
عنزة
الحجر
خبير
أسد
قبائل طيء
أبو قتادة ابن ربيعي الأنصاري
غالب بن عبد الله الليثي
فدك
الحناكية
المدينة النبوية
أبو عبيدة عامر بن الجراح
أملج
جهيبة
بنين البحر
بدر
خزاعة
مهد الذهب
شجاع بن وهب الأسدي
بنو سليم
هذيل
نخلة الشامية
قريش
مكة المكرمة
فتح مكة
الضعبية
الطائف
حنايف
هوازن
حنايف
مقاس الرسم
تضيف
٢٠٠ كم
١٠٠
صفر

من سرايا السنة الثامنة من الهجرة المباركة

هناك بعض السرايا من هذا العام
متذكّر في سرايا تحطيم الأسمان

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ١٨٧.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة عليه السلام إلى نجد.